الصور الأربع لحياة المسلمين في العهد النبوي

(مكّة قبل الهجرة، الحبشة، المدينة، مكّة بعد الفتح)

محمد الناصري ■

نسعى من خلال هذه المقالة إلى تحليل بعض الجوانب المبكرة من تطور حياة المسلمين في ضوء مفاهيم الدعوة والبلاغ والجماعة والأُمة، وتهتم هذه المقالة بصورة أولية بدعوة الإسلام، وكيف عملت جماعة المسلمين في العهد النبوي على تبليغها ونشرها؟

لقد عالج العديد من الكُتاب مسألة ظهور الإسلام من منطلق انتشاري لذا حلَّل توري «الأُسس اليهودية للإسلام»، وعالج بيل «أصل الإسلام في بيئته النصرانية»، وناقش هيرشبيرغ وجود التعاليم اليهودية والنصرانية في الجزيرة العربية في الجاهلية وصدر الإسلام، وأعاد كل من غريم ونيلسون وفيلبي العناصر الإسلامية إلى أصولها في جنوب الجزيرة العربية بوصفها المصدر الرئيس لانتشارها، كما ضمّن كروبر الإسلام في النموذج التوحيدي الإقصائي الذي يقول بتمييز اليهودية والنصرانية والإسلام مدللاً على مفهومه عن النماذج النسقية للانتشار. لقد هدفت أعمال هؤلاء إلى فهم اشتقاق بعض العناصر الثقافية التي استخدمها

■ باحث في الفكر الإسلامي وحوار الأديان والحضارات، المغرب.

الإسلام أو الإشارة إلى وجود عناصر مشابهة من تقاليد أخرى تطورت داخل المنطقة العامة نفسها[1].

كما نجد مناقشات حول حدود جغرافية الانتشار الإسلامي بسّطها لنا الدكتور رضوان السيد في معرض مناقشته لآراء الباحثة الإيطالية بيانكا والتي ربطت بين الانتشار الإسلامي والخصوصية الجغرافية.

يقول رضوان: إن الباحثة الايطالية بيانكا ماريا سكارسيا أموريتي قد أفضى بها التسرّع إلى بعض النقائض، حينما تبحث الجغرافية للإسلام بوصفها جزءًا من خصوصيته، صحيح أن الإسلام توقف عند حدود جغرافية معينة، ولكن ذلك لا يعود إلى طابعه الإيديولوجي الذي يقصره على مناطق معينة ذات مناخ معيّن كما يقول بلانول؛ بل لأن الطاقات البشرية المحدودة للجماعة التي حملته، والظروف السياسية والاجتماعية للشعوب والأُمم الأخرى التي واجهته حصرته (لم تحاصره) في البقاع الأكثر اعتدالاً في إفريقيا والشرقين الأدنى والأوسط... على حفافي الصحارى وفي محيطها.. وإلّا فكيف نفسّر انتشاره وتوسّعه في بقاع حارة الطقس والمناخ مثل إفريقيا السوداء وإندونيسيا والهند».

وقد احتجَّ رضوان السيد بطاقة الحامل البشري المحدودة التي لم تمكّن الإسلام من الانتشار خارج هذه الحدود الجغرافية، في حين احتجّت الباحثة بيانكا بالطابع الأيديولوجي المتسق مع هذه الجغرافيا[2].

ثم يورد رضوان السيد النصوص المتعلّقة بالدكتور جمال حمدان حول هذا الموضوع، يترامى الإسلام حتى خط الاستواء عبر بيئات طبيعية شديدة التفاوت، من الغابة الاستوائية إلى المدارية، ومن الساقانا الإفريقية إلى الاستبس الآسيوي، ومن أدغال الهند «الإسلام الموسمي» إلى الفلد الإفريقي، فهو إذاً يتوزّع في المناطق الحارّة والمعتدلة والباردة على السواء. كما ينتشر

1 ـ إريك وولف، التنظيم الاجتماعي في مكة وأصول الإسلام، منشور ضمن كتاب، أنثروبولوجيا الإسلام، إعداد، أبو بكر أحمد باقادر، دار الهادي، بيروت، ط. الأولى، 2005م، ص، 199.

2 ـ رضوان السيد، قضايا الإسلام المعاصر والمستقبل، صحيفة الخليج، الشارقة عدد 2444، تاريخ 27 ـ 12 ـ 1985م.

في الصحارى الجافة والأعشاب المطيرة، والغابات الكثيفة بلا استثناء. وبالمثل نجد الإسلام البحري على السواحل كما نجده في صميم القارات من الداخل، بل إن السواد الأعظم من المسلمين أقرب إلى التركز على القطاعات الساحلية والبحرية.

المهم أن رضوان السيد قد أوضح لنا خلافات بين رأيين، رأي يحاول التشديد على التشابه في بيئات العالم الإسلامي الجغرافية ليصل من وراء ذلك إلى تحديد سمات للإسلام وشخصية المسلم عن طريق البيئة والجغرافية «كزافييه دي بلانول»، ورأي يشدد على التنوع الجغرافي توصّلاً لنفي وحدة الإسلام الحضارية، ومن ثَمَّ نفي إمكان جامعته أو وحدته السياسية «جمال حمدان ـ ولفريد كانتويل سميث» في حين أكدت بيانكا ماريا سكارسيا أن الانتشار يعزى لتوق المسلمين لتحقيق إرادة الله في العالم عن طريق الدعوة والجهاد[1].

نحن مهتمون بصورة أساسية بدعوة الإسلام والطريقة التي قد اعتمدتها الجماعة المسلمة في تبليغ هذه الدعوة ونشرها، وكيف أن أنساق علاقة الجماعة المسلمة بغيرها في العهد النبوي وفي سعيها لتبليغ هذه الدعوة لم تتغير بتغير ظروف جماعة المسلمين وأحوالها.

على أن ما سنؤكد عليه هنا مختلف نوعاً ما، فنحن مهتمون بصورة أساسية بدعوة الإسلام والطريقة التي قد اعتمدتها الجماعة المسلمة في تبليغ هذه الدعوة ونشرها، وكيف أن أنساق علاقة الجماعة المسلمة بغيرها في العهد النبوي وفي سعيها لتبليغ هذه الدعوة لم تتغير بتغير ظروف جماعة المسلمين وأحوالها[2]؟

1 ـ لأبي القاسم حاج حمد رأي مغاير لكل ما أشرنا إليه، إذ يقول: «يوفر القرآن على هؤلاء الباحثين جهداً كبيراً لو اكتشفوا فيه مقولة «الأميين»، التي تعطي حدود هذا الانتشار بُعداً غير جغرافي أو بيئي بالمعنى الذي ذهب إليه بعضهم، كما تعطي هذا الانتشار المحدد بُعداً غير البعد الإطلاقي عبر مفهوم الدعوة والجهاد المجردين. ينظر تفصيل هذا الرأي في: العالمية الإسلامية الثانية، دار ابن حزم، ط. الثانية، 1996م، ص117 وما بعدها.

2 ـ تجدر الإشارة إلى أننا لا نتطلّع في هذه المقالة إلى الكمال على الاطلاق، من هنا فهي تتجاهل مساحات واسعة من حياة المسلمين في عهد النبي ﷺ.

ونتبيّن مصداقية هذا الاتجاه ببحث الصور الأربع لحياة المسلمين في العهد النبوي (مكة قبل الهجرة، الحبشة، المدينة، مكة بعد الفتح)، وكيف أن دعوة الإسلام خلال هذه الصور جاءت منسجمة والمبادئ العامة والقواعد الكلية الحاكمة لعلاقة الجماعة المسلمة بغيرها من الجماعات والدول التي لا تدين بالإسلام، والتي تتحصل بحسب ما تشير إليه آيات القرآن في مبدأ التوحيد وما يفترضه من نبذ التجزئة والصراع، وما يقتضيه من إيمان واعتراف بالديانات السابقة للإسلام، مما يقوي فرص السلام ويدعمها. ومبدأ العالمية وما يقتضيه من دعوة بالتي هي أحسن، وحوار بناء وانفتاح على الآخر، مما يدعم علاقات التعاون والتعايش السلمي بين الشعوب والأُمم... ومبادئ المساواة والعدل والحرية بوصفها الشروط الأساسية والضمانات الحقيقية لقيام السلم والسلام بين الأفراد والجماعات والأمم.

الصورة الأولى: مكة قبل الهجرة

مكّنت دعوة النبي ﷺ والتي بدأت سرية محلية[1] من دخول الناس في الإسلام أرتالاً من النساء والرجال حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به،

1 ـ الكثيرون ممن يجادلون في عالمية الخطاب القرآني ويشكّكون في كونية الإسلام ويلصقون صفة المحلية بدعوة النبي ﷺ، ينظرون للبدايات المحلية للدعوة الإسلامية. وبالفعل ففي الخطاب القرآني خاطب ابتداء النبي ﷺ عشيرته الأقربين، إلا أنه تدّرج بعد ذلك إلى أم القرى ومن حولها ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ثم إلى الشعوب الأمية كلها ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ثم إلى العالم كله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، والحق أنه لو أنصف القوم وتدبروا لألفوا القرآن نفسه يرد على دعواهم بما لا يقبل الشك أو الاحتمال. لقد أعلن القرآن في مواضع شتى من سوره المكية، أنه كتاب عالمي، وأن رسالة محمد رسالة للعالمين، لا لقريش وحدها، ولا للعرب وحدهم. أما الآيات المستند إليها لنفي العالمية عن الإسلام، فهي تتحدث عن التدرج في الدعوة والإنذار وفق منهج واقعي حكيم، إذ كان المنطلق والبداية بالدعوة الفردية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، ثم بمن هو أقرب من عشيرته ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، ثم بدأت تتسع الدائرة لتشمل قريشاً عامة وقبائل العرب كلما أتيحت فرصة ذلك ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ هذا وهو في الوقت ذاته ذكر للعالمين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾، ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. فالذي يتلو القرآن متجرداً من =

فأمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق، وأن ينادي الناس بأمره وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه، ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: 94] وقوله: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214].

وقد أسهمت هذه الدعوة في تشكيل النواة الأولى للجماعة المسلمة، البلورة الأولية للأُمة الشاملة والتعبير القانوني والمستجد عن تأسيس الدعوة، وظهور ركيزتها التي تعطي الأمل بإمكان التحقق الشامل لآخر الأُمم[1].

في سبيل تأسيس جماعتهم الأولى تعرَّض المسلمون لمختلف أشكال الإيذاء والتعذيب والاضطهاد؛ فقد لاقى الرسول ﷺ من الفئة الحاكمة في قريش أنواعاً كثيرة من الإيذاء؛ من سب وشتم وتسفيه وضرب وسخرية وتحقير واستهزاء وتكذيب ومحاولة قتل.

وفي سبيل تأسيس جماعتهم الأولى تعرَّض المسلمون لمختلف أشكال الإيذاء والتعذيب والاضطهاد؛ فقد لاقى الرسول ﷺ من الفئة الحاكمة في قريش أنواعاً كثيرة من الإيذاء؛ من سب وشتم وتسفيه وضرب وسخرية وتحقير واستهزاء وتكذيب ومحاولة قتل. وأما أصحابه فقد تجرع كل منهم ألواناً من العذاب حتى مات منهم من مات تحت العذاب، يضاف إلى ذلك الحصار الاقتصادي لمدة ثلاث سنين وما تبع ذلك من تجويع حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر. ويطول البحث لو ذهبنا نسرد نماذج من العذاب الذي لاقاه كل منهم، ولكنا ننقل هنا ما روي عن خباب بن الأرتّ أنه قال: «أَتيتُ النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت يا رسول الله: ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمرّ

= الهوى والعصبية يوقن أنه كتاب عالمي، يحمل دعوة عالمية منذ أول سورة، بل منذ أول آية بعد البسملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فليس هو كتاب قريش ولا كتاب العرب. وما قرره القرآن من عالمية الرسالة أكده النبي بقوله: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة».

1 ـ رضوان السيد، الأُمة والجماعة، والسلطة: دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي، دار اقرأ، بيروت، ط. الأولى، 1986م، ص51.

الوجه، فقال: **لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله»**[1].

السؤال الذي يطرح: كيف واجهت الجماعة المسلمة هذا الإيذاء والتعذيب؟ بتأمل المسرح المكي الذي بدأ فيه رسول الله ﷺ الدعوة إلى الإسلام، يتضح أن الأسلوب الذي واجهت به الجماعة المسلمة ذلك الصراع هو أسلوب الصبر والمقاومة السلمية، والإصرار على عدم اللجوء إلى الرد بالعنف، مهما تعرض المسلمون للأذى والعدوان من قبل الصفوة الحاكمة القرشية التي بلغ أمرها في أذى المسلمين حد الحصار والتعذيب والقتل.

لم يتغيّر موقف الجماعة المسلمة في مكة في عدم اللجوء إلى العنف رداً على عدوان قريش على المسلمين على الرغم من إسلام رجال محاربين وشجعان؛ أمثال حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب وانضمامهم إلى صفوف المسلمين، والذين أرادوا تحدّي قريش وطالبوا الرسول بالسماح لهم بالرد على العدوان ومواجهة العنف بالعنف. بل تمَّ اللجوء إلى أساليب ووسائل سلمية في مواجهة كل ذلك، كالاستفادة من قوانين المجتمع المشرك في الحماية والجوار، حيث كان المجتمع يقيم وزناً كبيراً لهذا القانون وهو حماية القوي الضعيف، وكذا التوجه إلى المحافل العامة والتواجد في الكعبة والاتصال بأولئك الوافدين على مكة ودعوتهم إلى الإسلام، فكانت بيعتا العقبة الأولى والثانية، واللتان مثّلتا أساس انبثاق الأُمة التي ستصنع دولتها في المدينة المنورة، إذ يمكن عدّ ما أقرته هاتان البيعتان من بنود المبادئ التأسيسية لتشكل الأُمة، كما استفادت الجماعة المسلمة الأولى من العناصر المشتركة بين الإسلام واليهودية والنصرانية، خاصة وأن بقايا النصارى الموجودين في مكة قد شهدوا لمحمد ﷺ بالرسالة، وبذلك شعر أهل مكة على الأقل أن اليهود والنصارى وجماعة محمد ﷺ في معسكرٍ واحد[2].

1 ـ أخرجه البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، رقم 6943.

2 ـ منير الغضبان، المنهج الحركي للسيرة النبوية، مكتبة المنار، الأردن، ط. السابعة، 1992م، ص 126.

لقد كان حرص الجماعة المسلمة في بداية دعوتها كبيراً على الاستفادة من الوسائل السلمية وعدم الاصطدام المباشر مع أهل مكة، وإن اقتضى الأمر البحث عن مكان آمن للدعوة عن طريق الهجرة.

من خلال هذه الصورة، ومن خلال التأمل في الواقع المكي الذي بدأت فيه الجماعة المسلمة دعوتها إلى الإسلام، والتأمل في أبعاد هذه الدعوة عقديا وسياسياً؛ يتضح أن أسلوب الجماعة المسلمة في مواجهتها للصراع الناجم عن الجهر بالدعوة الإسلامية ـ التي تهدف إلى أعمق ألوان الإصلاح والتغيير الاجتماعي ـ كان هو أسلوب الصبر والمقاومة السلمية داخل مجتمع مكة. فهل سيتغير هذا الأسلوب في الصور الكبرى الأخرى؟

الصورة الثانية: الهجرة إلى الحبشة

لم ترد الهجرة في الاستعمال القرآني بمعان سلبية إلا فيما كان يحملها محمل اجتناب الباطل ونبذ الفرقة، أو كان ينسبها إلى جحود الكفار ونكرانهم للقرآن وذلك في موضع واحد فقط في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 30]، فالهجرة هي خروج في سبيل الله وسعي لتحقيق رسالته في وحدة العبودية ورفعة قيم الدين.

لقد كان حرص الجماعة المسلمة في بداية دعوتها كبيراً على الاستفادة من الوسائل السلمية وعدم الاصطدام المباشر مع أهل مكة، وإن اقتضى الأمر البحث عن مكان آمن للدعوة عن طريق الهجرة.

من هنا يصبح المهاجر مرادفاً للمجاهد، تصديقاً للحديث النبوي: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيلي، وإيمان بي وتصديق برسلي، فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده، ما من كَلْم (أي جرح) يُكْلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِم، لَوْنُه لَوْنُ دم وريحه ريح مسك»[1].

1 ـ أخرجه البيهقي، السُنن الكبرى، كتاب السير، باب الرجل لا يجد ما ينفق، رقم 17265.

إنّ وصل الهجــرة بالجهاد يتنزل ضمن فلســفة الإســلام لمســؤولية الإنسان الكونية في الشــهادة على الناس جميعاً وحمل أمانة القيم وخلافة النبوة فــي الأرض. فالهجرة أصل في تحقيق غائية وجود الإنســان وتنزيل الدين. وقد يهاجــر المرء مســتضعفاً، ولكن لا يهاجر ضعيفــاً؛ لأن قرار الهجرة من ســنن اللّه العظيمة التي تشــترط قــوة فــي الإرادة وثباتاً في المبدأ. ولقد مثلت الهجرة دائماً نقطة تحول في تاريخ البشــرية، ولحظة حاسمة في رقي الحضارات أو سقوطها. فهجرة الأنبياء كانت السبيل لنشر رسالتهم وإنقاذ أتباعها من قهر المتجبرين وتأسيس قوائمها على أُسسٍ من العمران الآمن، بمثل ما آلت إليه هجرة ســيدنا إبراهيــم مع زوجته هاجر وابنه إســماعيل من بنــاء مجتمع مكة الذي كان له شــأن كبيــر في تاريخ الإســلام لاحقاً، أو هجرة العصبة من مستضعفي المســلمين الأوائل بمكة للحبشة التي قادت إلى كسب أول نصرة خارجية رسمية لرسالة الإسلام[1]. شكّلت هجرة الحبشة أول هجرة في الإسلام. وكان في مقدمة المهاجرين: عثمان بن عفان وزوجته، رقية بنت رســول اللّه ﷺ، وأبــو حذيفة وزوجته، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير وعبد الرحمٰن بن عوف... حتى اجتمع في أرض الحبشة من أصحابه ﷺ بضعة وثمانون رجلاً.

لم تسلم الجماعة المسلمة المهاجرة من متابعة قريش، حيث أرسلت إلى النجاشي بهدايا مختلفة كثيرة إليه وإلى حاشــيته وبطارقته، رجاءً أن يرفض قبول هؤلاء المسلمين في جواره ويسلمهم مرة أخرى إلى أعدائهم.

فلما كلموا النجاشــي في ذلك ـ وكانوا قد كلموا من قبله بطارقته وقدموا إليهم ما جاءوا به من الهدايا ـ رفض النجاشــي أن يسلم أحداً من المسلمين إليهم حتى يكلمهم في شأن دينهم الجديد هذا. فجيء بهم إليه، ورسولا قريش عنده، فقال لهم: «ما هذا الدين الذي قد فارقتــم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من المِلل؟».

1 ـ محمد المستيري، الحتمية الحضارية للهجرة الإســلامية، م. رؤى، مركز الدراسات الحضارية، باريس، السنة السابعة، ع. الخامس والعشرون، 2005م، ص41.

فكان الذي كلّمه جعفر بن أبـي طالب فقال: أيها الملـك: كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبـد الأصنام، ونـأكل الميتة، ونأتـي الفواحش، ونقطـع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسـولاً منا نعرف نسـبه وصدقه وأمانته وعفافـه، فدعانا إلـى الله لنوحده ونعبـده، ونخلع ما كنا نعبـد نحن وآباؤنا مـن دونه من الحجـارة والأوثان، وأمرنا بصـدق الحديث وأداء الأمانـة وصلة الرحم، ونهانا عـن الفواحش.. فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونـا إلى عبادة الأوثان.. فلمـا قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، خرجنـا إلى بـلادك واخترنـاك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك».

إنّ وصل الهجرة بالجهاد يتنزل ضمن فلسفة الإسلام لمسؤولية الإنسان الكونية في الشهادة على الناس جميعاً وحمل أمانة القيم وخلافة النبوة في الأرض.

فسأله النجاشي أن يتلو عليه شيئاً مما جاءهم به الرسـول ﷺ من عنـد الله؛ فقـرأ عليه جعفر صدراً مـن سـورة مريم، فبكـى النجاشـي حتى أخضلت لحيته، ثم قال لهم: «إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. ثم التفت إلى رسـولي قريش قائلاً: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون».

ثم إنهما عـادا فقالا للنجاشـي: أيها الملك إنهم يقولون في عيسـى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم في ذلك، فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا بـه نبينا محمد ﷺ، يقول: «**هو عبـد الله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول**».

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منه عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسـى ابن مريـم مما قلت هـذا العود». ثـم رد إليهمـا هداياهمـا، وزاد استمساكه بالمسلمين الذين استجاروا به، وعاد الرسل إلى قريش خائبين[1].

1 ـ انظر، سيرة ابن هشام، تحقيق سيد بن رجب، مراجعة مصطفى العدوي، مكتبة الصفا، القاهرة، ط. الأولى، 1423هـ/2003م.

إنّ الواضح من خلال هذه الوثيقة ـ والتي كان حرصنا كبيراً على إيرادها رغم طولها ـ أن الجماعة المسلمة قد اتخذت من الحوار أسلوباً سلمياً لإقناع النجاشي بصدق دعوتهم وإفشال مساعي رسل قريش في ردهم إلى مكة والنيل منهم. لقد استطاع المسلمون بالحبشة ـ عن طريق الحوار ـ أن يقدموا صورة فريدة عن الدعوة التي يحملونها من خلال التركيز على نقاط الالتقاء والقواسم المشتركة بين الإسلام والنصرانية.

كانت الجماعة المسلمة بالحبشة مقتنعة بأهمية الحوار في الدعوة، وكذا في كل قضايا الخلاف بينهم وبين أعدائهم، ففي القرآن تأكيد على هذا المبدأ بطرقٍ عديدةٍ إذ عرض القرآن لحوار الله مع خلقه بواسطة الرسل، وكذا مع الملائكة ومع إبليس، مع أن دعوات الرسل كلها كانت محكومة بالحوار مع أقوامهم، وقد أطال القرآن في عرض كثير من إحداثيات هذه الحوارات بين الرسل وأقوامهم ولم يشجب القرآن في هذا الباب موقفاً كما شجب موقف رفض الحوار والإصرار على عدم ممارسته: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۞ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: 6 ـ 7]، ومن ثَمَّ تكون دعوة القرآن إلى الحوار وضبط أصوله وقواعده أصلاً من أصول الدعوة في الإسلام، ومن خلالها يظهر المسلم مكلفاً بأن يتعامل مع خصومه بمنهجٍ هادئٍ رصين بعيد عن كل أنواع التوتر، مع الاعتراف بالآخر والتواصل معه عبر جسور الحوار[1]. من هذا المنطلق فالحديث عن الحوار في الإطار الإسلامي هو حديث عن توجه حضاري عام في بنية الإسلام وتصوراته الكونية العامة[2]. وهذا ما عملت به الجماعة المسلمة بالحبشة إذ اتخذت الحوار وسيلة من الوسائل المهمة في التعريف بالإسلام ونشر دعوته.

1 ـ عبد الرحمٰن حللي، حرية الاعتقاد في القرآن الكريم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. الأولى، 2001م، ص103 بتصرف يسير.

2 ـ عبد العزيز برغوث، مفهوما العارف والتدافع وموقعهما في الحوار من المنظور الإسلامي، م. إسلامية المعرفة، السنة السادسة عشرة، شتاء 2011م، العدد، 63، ص. 81.

الصورة الثالثة: الهجرة إلى المدينة

حين استقر الرسول ﷺ في المدينة المنورة، بدأ ببناء جماعة المسلمين أملاً في تحقيق أُمة الشهادة على العالمين. ولكي يتماسك البناء الاجتماعي والسياسي، وينتقل الناس من الفكر القبلي إلى فكر الجماعة، استبدل العلاقات القبلية بالعلاقات الإنسانية والعقدية والقانونية، وأقام مبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. ففي سيرة ابن هشام قال ابن اسحاق: «وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال: **تآخوا أخوين أخوين**، ثم أخذ بيد علي. فقال: **هذا أخي**، فكان رسول الله ﷺ وعلي أخوين. وكان حمزة وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين...»[1]. وبهذه المؤاخاة أزال رسول الله الخلاف والأحقاد التي كانت بين قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة.

خطا رسول الله ﷺ خطوات سياسية أخرى في منهاج الدعوة الإسلامية، وخطوات في بناء الأُمة الإسلامية، وهي كتابة وثيقة السلام، التي تبنت المبادئ التي تحل بها المشاكل والنزاعات بطريقة سلمية، إنها وثيقة المدينة.

ثم خطا رسول الله ﷺ خطوات سياسية أخرى في منهاج الدعوة الإسلامية، وخطوات في بناء الأُمة الإسلامية، وهي كتابة وثيقة السلام، التي تبنت المبادئ التي تحل بها المشاكل والنزاعات بطريقة سلمية، إنها وثيقة المدينة. وهي تلك الصحيفة أو الدستور ـ كما يسميه بعضهم ـ الذي أبرمه رسول الله ﷺ عقب هجرته إلى المدينة المنورة (يثرب)؛ لينظّم الحقوق والواجبات بين مكونات المجتمع المديني من مهاجرين وأنصار (أوس وخزرج) ويهود، ووثنين. فما الذي تضمّنته هذه الوثيقة بخصوص اليهود؟ وكيف رسمت حدود العلاقة بينهم وبين جماعة المسلمين؟ وإلى أي مدى تتوافق بنودها مع ما ذكرناه من مبادئ وقيم قرآنية بوصفها أصولاً مؤسسة لعلاقة الجماعة المسلمة بغيرها؟

مما ذكرته الوثيقة بين المسلمين واليهود: «أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين... وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم

1 ـ انظر سيرة ابن هشام.

وللمسلمين دينهم، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وألا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم... وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم... وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن، بالمدينة إلا من ظلم، وأثم، وأن الله جارٌ لمن برَّ واتقى ومحمدٌ رسول الله ﷺ»[1].

من خلال هذه البنود يتبيّن أن الوثيقة مثلت شكلاً متقدماً من أشكال المدنية وأنماط التعايش القائم على التعددية والتنوع في إطار من المساواة والعدالة وحق المواطنة الكاملة لأهل الطوائف غير الإسلامية الذين يعيشون في إطار المجتمع الإسلامي من دون أي نوع من التمييز.

لقد نصّت صحيفة المدينة على ذلك؛ إذ أقرّت أن المسلمين وغيرهم من أهل المدينة يشكّلون «أُمةٌ واحدةً». وفي إطار هذه الأُمة الواحدة، لكل طائفة حرية الاعتقاد، وحق الملكية، وحق الحماية وواجب الدفاع المشترك، وحق المراقبة، والمساءلة وإبداء الرأي، والتعددية، والمساواة، والإدارة السلمية للاختلافات، وهي قيم ذات دلالات وأبعاد حضارية، لا تتعارض مع الانتماء إلى أُمةٍ واحدةٍ أو مجتمع مدني واحد. حيث لم يضع الإسلام الدين أساساً للانتماء، بل جعل الأساس هو الالتزام بشروط العقد الاجتماعي، ولعل أهمها عنصر «تحقيق الأمن».

ونلحق بهذه الوثيقة العهود التي كتبها الرسول ﷺ لعددٍ من التجمعات اليهودية في شمال شبه الجزيرة العربية، بعد غزوة خيبر والسنين التي تلتها، ومنها:

1 ـ انظر محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ط. السادسة، 1407هـ/1987م، ص 59 ـ 62.

أمان ليهود بني عاديا من تيماء

إذ كتب ﷺ عهد أمان ليهود بني عاديا من تيماء جاء فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد رسول الله لبني عاديا: إن لهم الذمة وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء، الليل مد، والنهار شد**»[1].

أمان ليهود أيلة

كما كتب ﷺ عهد أمان مع يهود أيلة جاء فيه: «هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمدٍ النبي رسول لِيُحَنَّةَ بن رُؤْبة وأهل أَيْلَة، سفُنهم وسيارتُهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يَحُولُ ماله دون نفسه، وإنه طَيِّبٌ لمن أَخَذَهُ من الناس، وأنه لا يحل أن يُمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر»[2].

لقد نصّت صحيفة المدينة على ذلك؛ إذ أقرّت أن المسلمين وغيرهم من أهل المدينة يشكّلون «أُمةٌ واحدةً»، وفي إطار هذه الأُمة الواحدة، لكل طائفة حرية الاعتقاد، وحق الملكية، وحق الحماية وواجب الدفاع المشترك.

معاهدته ﷺ مع أهل مقنا

وبعث رسول الله ﷺ عهدا إلى بني جنبة وإلى أهل مقنا جاء فيه: «أما بعد. فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون، لكم ذمة الله وذمة رسوله، وإن رسوله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم، وإن لكم ذمة الله وذمة رسوله، لا ظلم عليكم ولا عدى، وإن رسول الله جار لكم مما منع منه نفسه... وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخلكم،...، وربع ما اغتزل نساؤكم، وإنكم برئتم بعد من كل جزية أو سخرة، فإن سمعتم وأطعتم، فإن على رسول الله أن يكرم كريمكم، ويعفو عن مسيئكم، أما بعد فإلى المؤمنين والمسلمين: من أطلع أهل مقنا بخير فهو خير له،

1 ـ محمد حميد الله، م. س.، ص 98.

2 ـ المصدر السابق، ص 118.

ومن أطلعهم بشر فهو شر له. وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل رسول الله»[1].

معاهدته ﷺ مع أهل جرباء وأذرح

وكتب ﷺ لأهل جربـاء وأَذْرُحَ من اليهود: «**إنهـم آمنون بآمان الله، ومحمد، وأن عليهم مائـة دينار في كل رجب وافيـة طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسـلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذا خَشَـوْا على المسـلمين، وهم آمنون حتى يُحْدِثَ إليهم محمد قبل خروجه**»[2].

هذه بعض العهود التي كتبها الرسول ﷺ لليهود وهي تؤكد جميعها على أمانهم وتمتعهم بعدل الإسـلام وسـماحته في مقابل جزية محددة يدفعونها إلى المسلمين.

وإذا علمنا أن هذه العهود كلها كُتبـت بعد غزوة خيبر التي وقعت في السـنة السـابعة للهجرة[3] أمكننا القـول: إن الاعتراف بالآخـر واحترام خصوصياته العقدية والسياسـية والاقتصادية... مسألة مبدأ في الإسلام، إنه موقف ثابت لا يتغير بتغير أحوال الأُمة الإسـلامية وأوضاعها المادية، فموقف الإسلام والمسلمين من الآخر المخالف دينياً واحد، في حالة قوة المسـلمين وتمكنهم أو في حالة ضعفهم ووهنهم، وهذا ما تزكيه العهود السـابقة الذكـر والتي جـاء التنصيـص عليها فـي زمن قـوة الجماعة الإسلامية إذ رغم ذلك حفظت لغير المسـلمين حقوقهم الإنسانية كاملة غير منقوصة.

ولأن الإسـلام دعوة شـاملة، والعالم كله وليس يثرب فقط هو مجال

1 ـ محمد حميد الله، م. س.، ص120.

2 ـ المصدر السابق، ص119.

3 ـ راجع ابن قيم الجوزيـة، زاد المعاد في هدي خيـر العباد، مكتبة الصفـا، القاهرة، طبعة 1426هـ/2004م.، ج. الثاني، ص183.

تحققه، لم تتوقف الجماعة المسلمة في التعامل مع الآخر النقيض دينياً عند حد اليهود فحسب، إنما امتدت دعوتها لتشمل النصارى، مما يوضح البعد الشامل الذي أعطاه الإسلام لاستراتيجية التعايش السلمي والاعتراف بالآخر.

وفي هذا السياق يأتي ذلك العهد الذي أبرمه رسول الله ﷺ مع نصارى نجران حين قدومهم عليه عقب غزوة تبوك عام تسعة للهجرة[1]. والذي بفضله تمكن الرسول ﷺ من استيعاب كل النصارى ـ نصارى نجران وكل المتدينين بالنصرانية ـ في صلب الأُمة الواحدة.

إذا علمنا أن هذه العهود كلها كُتبت بعد غزوة خيبر التي وقعت في السنة السابعة للهجرة أمكننا القول: إن الاعتراف بالآخر واحترام خصوصياته العقدية والسياسية والاقتصادية... مسألة مبدأ في الإسلام.

وقد جاء العهد[2] متضمناً: «لنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم، وأنفسهم، وملّتهم، وبيعهم، ورهبانيتهم، وأساقفتهم، وشاهدهم، وغائبهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. على ألا يغير أسقفٌ من أُسْقُفِيّتِهِ، ولا راهب من رهبانيته، وعلى ألا يحشروا، ولا يعشروا، ولا يطأ أرضهم جيش. ومن سأل منهم حقّاً فالنصف بينهم بنجران. وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا، غير مظلومين ولا معنوف عليهم»[3].

إنّ هذه المقتطفات الواردة هنا وهي قليل من كثير في العهد تظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن نصوصه جاءت ضامنة لنصارى نجران من الحقوق ما يحفظ إنسانيتهم ويصون كرامتهم، وينشر الأمن والسلام بين الناس، إذ نصَّ على:

1 ـ راجع ابن قيم الجوزية، م. س.، ج. الثاني، ص323.

2 ـ راجع نص العهد: على اختلاف رواياته، محمد حميد الله، م. س.، ص175 وما بعدها، كما تجد في نفس الكتاب دعوته لأساقفة نجران، ص174.

3 ـ محمد حميد الله، م. س.، ص176.

احترام حرية الاعتقاد وتحقيق العدل والمساواة، إذ نقرأ في العهد أنه: «لا يجبر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرهاً على الإسلام»[1]. وبقدر اهتمام الميثاق بالقيم ذات الطابع السياسي (الحرية، العدل، المساواة..) بقدر اهتمامه بالقيم والأخلاق الاجتماعية، إذ نصَّ العهد على ضرورة التكافل الاجتماعي والتعاون على الخير بين المسلمين والنصارى، حتى يكونوا يداً واحدة على من عاداهم، إذ جعل الميثاق من واجبات الطرفين التعاون في الدفاع المشترك عن حرمات الطرفين، والتعاون في وفاء الدين على الغارمين من الفريقين. حيث نقرأ أنه: «إن أجرم أحد من النصارى أو جنى جناية، فعلى المسلمين نصره، والمنع والذب عنه، والغرم عن جريرته، والدخول في الصلح بينه وبين مَن جنى عليه، فإما من عليه، أو يفادى به، ولا يرفضوا ولا يخذلوا ولا يتركوا هملاً»[2].

كما ألزم الميثاق المسلمين بتقديم يد العون والمساعدة للنصارى، وإن تعلّق الأمر بإصلاح وترميم كنائسهم، إذ ينص العهد أنه «لهم إن احتاجوا في مرمة بيعهم وصوامعهم أو شيء من مصالح أمورهم ودينهم، إلى رفد[3] من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها، أن يرفدوا على ذلك ويعانوا، ولا يكون ذلك ديناً عليهم، بل تقوية لهم على مصلحة دينهم»[4].

لم يتوقف التوجيه القرآني للجماعة المسلمة في التعامل مع الآخر النقيض دينياً عند حد أهل الديانات فحسب، إنما امتد ليشمل المشركين المسالمين للجماعة المسلمة؛ كما هو الشأن في صلح الحديبية، ذلك العهد الذي أبرمه الرسول ﷺ مع مشركي قريش عام 6هـ[5]. حيث عاهد رسول الله ﷺ المشركين في الحديبية على السلم والأمان عشر سنين بشروط تساهل معهم فيه منتهى

1 ـ المصدر السابق، ص188.

2 ـ المصدر السابق نفسه.

3 ـ رفد: «وإن استرفدتم ترفدون» الاسترفاد: الاستعانة، والإرفاد: الإعانة، ص605.

4 ـ محمد حميد الله، م. س.، ص190.

5 ـ للاطلاع على وقائع صلح الحديبية راجع ابن هشام، السيرة النبوية، م. س.، ج.، الثاني، ص204 وما بعدها.

التساهل عن قوة وعز، لا عن ضعف وذلة، ولكن حباً بالسلم ونشر دينه بالإقناع والحجة[1].

كما لم يقتصر الأمر في معاهدة المشركين على كفار قريش، بل تعداهم ليشمل غيرهم من القبائل العربية، وفي هذا السياق تأتي معاهدته ﷺ مع قبيلة بني ضمرة[2]، وقد عقد ﷺ معاهدة مماثلة مع بني غفار[3].

نستطيع أن نؤكد أن علاقة جماعة المسلمين بغيرهم خلال الصورة الثالثة من صور حياة المسلمين في العهد النبوي، هي بدورها يطبعها التعايش السلمي مع المخالف دينياً، علاقة قائمة على أخلاق الإسلام الإنسانية الموجهة والمسدّدة بأصول الوحي المنزل.

نستطيع أن نؤكد أن علاقة جماعة المسلمين بغيرهم خلال الصورة الثالثة من صور حياة المسلمين في العهد النبوي، هي بدورها يطبعها التعايش السلمي مع المخالف دينياً.

الصورة الرابعة: مكّة بعد الفتح

عند فتح مكة كانت الجماعة المسلمة على أرض الجزيرة قد تحققت تقريباً. ولأن الجماعة المسلمة ليست جماعة منغلقة لما في سعيها نحو الدعوة الموجّهة إلى الناس جميعاً بوصفها مشروعاً تغييرياً حضارياً وإنسانياً، والتي تمتد

1 ـ رشيد رضا، تفسير المنار، تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار، دار الفكر، ط. الثانية، د. ت.، ج. العاشر، ص. 146.

2 ـ والتي تنص على مسالمتهم، وعدم محاربتهم، وجاء نصها في الوثائق السياسية كالآتي:
«**بسم الله الرحمٰن الرحيم: هذا كتاب من محمد رسول الله، لبني ضمرة: بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا في دين الله ما بل بحر صوفة. وإذا دعاهم لنصر أجابوه. عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله. ولهم النصر على من اتقى**». انظر: محمد حميد الله، م. س.، ص267.

3 ـ وقد جاء نص عهده مع بني غفار كالتالي:
«**لبني غفار: إنهم من المسلمين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. وإن النبي عقد لهم ذمة الله وذمة رسوله على أموالهم وأنفسهم، ولهم النصر على من بدأهم بالظلم.**
وإن النبي إذا دعاهم لينصروه أجابوه وعليهم نصره؛ إلا من حارب في الدين، ما بلَّ بحرٌ صوفةً. وإن هذا الكتاب لا يحول من دون إثم» انظر، محمد حميد الله، م. س.، ص268.

في سياق رؤية الإسلام التغييرية الإصلاحية بامتداد الوجود الإنساني في الحاضر والمستقبل على المستويين الحضاري والجغرافي. ولأن فكرة العالمية في التصور الإسلامي تشيع فيه منذ بداياته، وفي كل جوانبه سواء منها جوانبه العقيدية أو الشرعية أو رؤيته الكلية للكون والإنسان والحياة. ما كانت فكرة الأمة القائمة على الدعوة لتقف عند هذا الحد، فنزول القرآن المجيد بلغة العرب على رسول منهم يعيش في بلدتهم المحرمة «أم القرى ـ مكة»، «لم يحل بين العربي وبين إدراك عالمية هذه الرسالة وعمومها وشمولها»[1]. فلقد جعل الله عالمية الخطاب أساساً لخروج العربي، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سبأ: 28]. وتربط الآية بين هذه العالمية وملك الله للسموات والأرض، فهي عالمية وكونية بذات الوقت، ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]»[2]. كما أن ذلك لم يحل دون إدراك «العربي» لمهمته في أن يكون حاملاً لهذه الرسالة إلى جميع أرجاء المعمورة، وتنتقل هذه المهمة بعد وفاة رسول الله ﷺ إلى أُمته، التي ينبغي أن تكون الأمة القطب[3] المخرجة إلى الناس؛ لاستقطابهم حول الهدى والحق وسائر القيم التي اشتملت هذه الرسالة عليها»[4].

وهذا ما تدل عليه مبادرة النبي ﷺ قبل فتح مكة، بإرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء على أطراف الجزيرة. فكان من بين الذين أرسل إليهم النجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وكسرى ملك الفرس، وقيصر

1 ـ طه جابر العلواني، الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، دار الهادي، بيروت، ط. الأولى، 2003م، ص55.

2 ـ محمد أبو القاسم الحاج حمد، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، دار الهادي، بيروت، ط. الأولى، 2004م، ص352.

3 ـ الأُمة القطب، مفهوم، أول من أصَّل له واستعمله في المحيط العربي، فيما أعلم، د. منى أبو الفضل ولها كتاب يحمل هذا العنوان، نشره المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط. الثانية، 1998م. وهي تطلقه وتريد الأُمة العربية وعمقها الإسلامي.

4 ـ طٰه جابر العلواني، الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، م. س.، ص55.

ملك الروم، كما بعث ﷺ بكتب أخرى إلى كثير من الأمراء العرب المتفرقين في مختلف المناطق، فأسلم منهم الكثير، وعاند بعضهم[1].

لقد مثلت هذه الرسائل منعطفاً كبيراً في تاريخ الإسلام والجماعة المسلمة، حيث ربطت المسلمين بالعالم كله؛ ولكي نفهم حقيقة هذه المبادرة ونضعها في موقعها الصحيح، ينبغي أن تفهم بالنظر للخصائص الذاتية للجماعة المسلمة المتمثلة في كونها أمة الخروج والشهادة والعالمية والخيرية. إن الناظر لهذه الخصائص الكثيرة للأُمة المسلمة سيدرك بوضوح توجهها العام، والصبغة الأساسية التي تطبع رؤيتها للكون والوجود والإنسان، وهي أنها أُمة منفتحة على الآخر، مهيأة بحكم خصائصها لكي تكون عامل تعاون وتفاعل وتعارف بين مختلف الأمم والشعوب في إطار عالمية الدعوة الإسلامية.

إنّ الناظر لهذه الخصائص الكثيرة للأُمة المسلمة سيدرك بوضوح توجهها العام، والصبغة الأساسية التي تطبع رؤيتها للكون والوجود والإنسان، وهي أنها أُمة منفتحة على الآخر.

و«حين نقول بعالمية دعوة الإسلام؛ فإننا نستجيب لنوع من العالمية الاختيارية التي تقوم على إنسانية التوجه وليس على قهريته، وهذا هو عين الشرط الإنساني الاختياري الذي عمقه القرآن الكريم بمفهوم النبي الأُمي والرسالة إلى الناس كافة، وهذا هو الأساس الحضاري الذي حاول الإسلام تكريسه في ظل عالمية الأميين حين دمج بين حضارات الشعوب القديمة وثقافاتها، كما طرح نفسه وعاء تاريخياً لكافة الديانات السماوية ودمج بين الأعراق والسلالات»[2].

في هذه اللحظة؛ لا بد أن نتساءل عن أوقات توظيف الجماعة المسلمة للقتال في مواجهة المخالفين للدعوة؟ وهل صحيح وظفت

1 ـ انظر: ابن هشام، السيرة النبوية.

2 ـ محمد أبو القاسم الحاج حمد، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، م. س.، ص 446.

الجماعة المسلمة القتال لإخضاع المشركين من العرب الوثنيين في بداية أمرها؟ وأنه لم يمض وقت حتى جرى التخلي عن هذا التعليل لصالح تعليل آخر أكثر صراحة وتوافقاً مع سياق مفهوم الأُمة الشاملة المتحققة بعد فتح مكة وهو مقاتلة المشركين «حتى لا تكون فتنة»، و«يكون الدين كله لله»؟ وأن القتال سُنَّة من سُنَن الكون لتحقيق إرادة الله في الأرض في وجه الطغاة والمستكبرين والعالين؟ وإنه على الجماعة المسلمة أن تختار بين مسالمة خصومها وانكماشها بل فنائها أو القتال فالامتداد والفتح واستشراف آفاق الأُمة، أُمة آخر النبيين[1]. هل صحيح أن ما أكدنا عليه من حرص الجماعة المسلمة على المواقف السلمية في علاقتها بغيرها من الأمم التي لا تدين بالإسلام قد نسخت بآيات القتال الداعية إلى إعمال السيف في مواجهة الأعداء؟

يسعفنا في الإجابة عن هذه الإشكالات الحديث عن الغاية من تشريع «القتال» في الإسلام، من الغايات التي ذكرت في القرآن الكريم للقتال:

- الدفاع عن المسلمين، ورد الاعتداءات والظلم الذي يلحق بهم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39].

- نصرة المظلوم فرداً وجماعة: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: 75].

- منع الفساد في الأرض: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251].

- الحرص على تطبيق بنود المعاهدات السلمية ومنع نقضها، أو الإخلال بشرائطها، أو تأليب الأعداء على المسلمين: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: 12].

1 ـ رضوان السيد، الأُمة والجماعة والسلطة، م. س.، ص85 ـ 86.

لقد جاءت آيات القتال في القرآن الكريم في كثير من السور المكية والمدنية مبينة السبب الذي من أجله أذن في القتال وهو يرجع إما إلى دفع الظلم، أو قطع الفتنة، أو حماية الدعوة الإسلامية، أو منع الفساد في الأرض، أو الحرص على تطبيق بنود المعاهدات السلمية ومنع نقضها، كما بينا.

وبناء عليه فعدّ «الجهاد» مبادأة للناس بالقتال، وأسلوباً لفرض الإسلام بالقوة والإكراه غير صحيح البتة. الجهاد في الإسلام حماية للدعوة والدعاة عندما تفرض الظروف تحديات على المسلمين، ومعلوم من الدين بالضرورة أن الدعوة تتحقق بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تتحقّق بشيء غيره.

جاءت آيات القتال في القرآن الكريم في كثير من السور المكية والمدنية مبينة السبب الذي من أجله أذن في القتال وهو يرجع إما إلى دفع الظلم، أو قطع الفتنة، أو حماية الدعوة الإسلامية، أو منع الفساد في الأرض.

لا نجد في القرآن الكريم ما يؤيد عدّ القتال ابتداء، وعدة وسيلة من وسائل إجبار الناس على الإسلام، بل كل ما هناك ـ كما بينا ـ أن القتال خيار أخير لحماية الدعوة من كل التحديات التي تواجهها. فالقتال وسيلة للحماية وللدفاع وليس هدفاً بحد ذاته.

ونجد في سيرة الرسول ﷺ ما يؤيد القول ويدعمه، فالرسول ﷺ لم يبدأ أحداً من الكفار بقتال، ولو كان الله أمره بقتل كل كافر لكان يبتدئهم بالقتال.

والأدلة التاريخية تشهد أن غزوات الرسول ﷺ كانت دفاعية؛ فغزوة بدر ـ وهي أولى المعارك ـ لم يبدأ الرسول ﷺ فيها بقتال، بل تعرض لقافلة قريش التجارية؛ لاسترداد حقوق مالية من أهل مكة، فقد استولى زعماء مكة على أموال المهاجرين وصادروها، وحين علم الرسول ﷺ بخروج قافلة مكة التجارية إلى الشام بقيادة أبي سفيان؛ خرج رسول الله ﷺ لاعتراض القافلة، والاستيلاء عليها، غير أن القافلة تمكّنت من الإفلات. فجمعت قريش جيشها وقامت بالهجوم على المسلمين، وكانت المعركة عند ماء بدر قرب المدينة المنورة، في السنة الثانية للهجرة، في السابع عشر من رمضان المبارك، فنصر الله المسلمين وهزمت قريش شر هزيمة.

ومثلها معركة أُحد، فقد كان مشركو مكة هم المهاجمون، وكان موقف رسول الله ﷺ دفاعياً؛ إذ جمع المشركون ثلاثة آلاف مقاتل واتجهوا من مكة إلى المدينة للقضاء على الرسول والدعوة والدولة هناك، فتصدى لهم المسلمون على مقربة من المدينة فوقعت المعركة.

وأما معارك الرسول ﷺ مع اليهود فلم يبدأ بقتال حتى نقضوا العهود والمواثيق، واعتدوا على حرمة إحدى النساء المسلمات وقتلوا أحد المسلمين عندما دافع عنها، ثم تحول النزاع إلى معركة محلية في سوق بني قينقاع، بين المسلمين واليهود، مما دعا رسول الله ﷺ إلى محاربتهم..

ومثلها معركة الأحزاب، فقد كانت معركة دفاعية، إذ هاجمت قريش وحلفاؤها المسلمين في المدينة المنورة. وتؤكد الوثائق التاريخية أن غزوة رسول الله ﷺ ليهود بني النضير لم تقع إلا بعد نقضهم للعهد وتآمرهم على رسول الله ﷺ لقتله بإلقاء صخرة عليه من أعلى سطح منزل من منازلهم، كان رسول الله ﷺ جالساً بجواره، حين ذهب إلى قريتهم يطلب منهم المشاركة في أداء دية لقتيل بحسب الاتفاق معهم، مما دعا إلى مقاتلتهم.

أما غزوة مؤتة فسببها أن ملكاً في بلاد الروم كان قد قتل المبعوث الذي بعثه رسول الله ﷺ إليه، سنة ثمانٍ من الهجرة ليدعوهم إلى الإسلام، وينقل إليهم رسالة رسول الله ﷺ، إلا أنهم كشفوا عن موقفهم الحربي والعدواني من الدعوة والدولة الإسلامية، مما دعا رسول الله ﷺ إلى أن يغزوهم ليرد عليهم عدوانهم، ويشعرهم بقوة الدولة والدعوة كعملية دفاع وردع.

وأما غزوتا هوازن وثقيف، فإن هاتين القبيلتين كانتا قد أعدتا العدة معاً للهجوم على المسلمين، فبدأ رسول الله ﷺ بالهجوم عليهما دفاعاً عن الإسلام والأُمة والدعوة، ومثلها غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة لبلاد الروم؛ ذلك أن رسول الله بلغته معلومات وأنباء عن تهيؤ الروم لغزو المدينة، والقضاء على الدعوة الإسلامية، مما دعا رسول الله ﷺ إلى غزوهم

كمبادرة دفاعية، وعمل وقائي. وقد انتهى الموقف بعد وصول جيش المسلمين إلى تبوك من أرض الشام بالصلح[1].

يتبيّن من خلال تتبعنا هذا لغزوات النبي ﷺ أن الأمر بالقتال أمر دفاعي، وأن السبب الذي كان يحرك رسول الله في جميع غزواته هو الدفاع، ومواجهة الظلم والطاغوت ونصرة الحق والمستضعفين، ولم يشرع القتال للانتقام والتسلط والعدوان. وهو ما ينسجم مع آخر ما عهد به رسول الله إلى جماعة المسلمين في خطبة حجة الوداع أو حجة البلاغ، الخطبة التي ألقاها رسول الله لوداع جماعة المسلمين؛ إذ خاطبهم قبل الخاتمة قائلاً: «إن الله بعثني رحمة وكافة فأدوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا عليَّ»[2].

يتبيّن من خلال تتبعنا لغزوات النبي ﷺ أن الأمر بالقتال أمر دفاعي، وأن السبب الذي كان يحرك رسول الله في جميع غزواته هو الدفاع، ومواجهة الظلم والطاغوت ونصرة الحق والمستضعفين.

إن ميزان الرحمة هو منهج الإسلام في معاملته مع الشعوب الأخرى، وقد حصرت دعوة النبي بأنها الرحمة الشاملة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، والرحمة تقتضي البناء لا الهدم، واحترام حق الحياة لا القتل أو الموت، والإحسان لا الإساءة وإشاعة المحبة لا الكراهية والبغضاء، والإصلاح لا الفساد، ومعاملة الآخرين بالعدل والقسط لا الظلم، والحرص على استقرار الأمن والسلام لا التخويف والإرهاب وشن الحروب[3].

لقد كان على جماعة حجة الوداع الذين سمعوا كلمات نبيهم الأخيرة أن يحملوا الرحمة إلى العالم «كافة». وأن يحرصوا على الوحدة في التبليغ وعدم الاختلاف[4]: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 156].

1 ـ انظر تفاصيل كل ذلك في: ابن هشام، السيرة النبوية؛ ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد.

2 ـ انظر: ابن هشام، السيرة النبوية.

3 ـ وهبة الزحيلي، آثار الحرب، دراسة فقهية مقارنة، دار الفكر، دمشق، ط. الرابعة، 1430هـ/2009م. ص 501.

4 ـ رضوان السيد، الأمة والجماعة م. س.، ص 69.

على سبيل الختم:

إنّ الواقع التاريخي قد رسّخ في أذهان الناس الوسائل التي اتبعت في عمليات الانتشار الإسلامي الأولى وهي الفتح، واستقر في الأذهان أن على الأُمة المسلمة أن تقيم دولة، لتتولى هذه الدولة مهام دولة المدينة في العالم المعاصر، وتكون قاعدة الانطلاق نحو العالم لإخضاعه للخليفة المسلم الواحد الذي عليه أن يقتل دار الحرب بدار الإسلام حتى ظهور المهدي ونزول عيسى الذي ستتم على طريقه أسلمة العالم كله؟ كما استقر في الأذهان أن المسلمين في حاجة إلى التعبئة الدائمة والمستمرة لتحقيق هذا الحلم في بناء دولة التمكين والانطلاق. وقد بقي الخطاب الإسلامي المعاصر حبيس هذه الأمنية محاطاً بتأثير التصورات المختلفة لما يعدّ من عوامل أو أسباب أو وسائل تحقيقها، وبقيت العقول المسلمة والأنظار معلقة بالواقع التاريخي فقط غير ملتفتة إلى الواقع المعاصر أو المستقبل باحثة عن وسائل تحقيق أُمّ الأماني: بناء الدولة والوصول إلى الحكم، فلم يزدها ذلك إلا بُعداً عن تحقيق أهدافها في استئناف حياة إسلامية[1]. وفي اعتقادنا؛ إن تناول الصور الأربع لحياة المسلمين في العهد النبوي بالدراسة والتحليل والاستنطاق ومحاولة الفهم يساعد في تجاوز كل هذه الآفات الفكرية الخطيرة العواقب والآثار.

1 ـ طه جابر العلواني، الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي، م. س.، ص60.